المخطوطات المصورة بدير سيناء

- ٢ -

# سـلم الفضائل

لصاحبه

**يوحنا رئيس دير سيناء**

(أواخر القرن السادس)

للأستاذ الدكتور

**سامي شنوده**

الأستاذ المساعد بقسم الآثار

يحمل مخطوط «سلم الفضائل» ليوحنا رئيس دير طور سيناء ، رقم ٣٤٣ عربى (١) ضمن مجموعة مخطوطات دير القديسة كاترينا بسيناء والبالغ عددها نيفا وسبعمائة مخطوطاً . ويرجع إهتمامى بهذا المخطوط العربى إلى احتوائه على منمنمتين ، تمثل الأولى يوحنا مصنف الكتاب (شكل ١) بينما تمثل الثانية «سلم الفضائل» وهو موضوع الكتاب (شكل ٢) (٢)

يرجع تاريخ هذا المخطوط إلى عام ١٦١٢ ميلادية وبالتحديد إلى شهر أكتوبر من هذا العام إذ جاء فى حاشية الكتاب الأخيره ما نصه « نجز هذا الكتاب على يد أفقر عباد الله تعالى ثابت الخورى الحموى المسيحى وذلك بتاريخ أوائل شهر تشرين الأول سنة سبعة آلاف ومائة وعشرين الموافق شهر رمضان ١٠٢٠» (٣)

وإذا كان هذا المخطوط هو أحدث المخطوطات العربية الخمس التى تمتلكها مكتبة الدير «لسلم الفضائل» (٤) فهو الوحيد بينها الذى يشتمل على

---

(١) Kenneth W. Clark, *Checklist of Manuscripts in St. Catherine Monastery*, Mount Sinai. Microfilmed for the Library of Congress 1950. p. 34

المخطوط من الورق وتبلغ عدد ورقاته ١٦٩ ورقة تكون كل ثمانية منها ملزمة منفصلة وطول الصفحة ٣٠ سم وعرضها ٢٠٫٣ سم وتشغل الكتابة حيزا طوله ٢٠٫٩ وعرضه ١٤٫٥ سم بينما تشغل كل من صورتية حيزا طوله ١٣٫٥ سم وعرضه ٨٫٥ سم .

(٢) لم يسبق نشر أى من الصورتين .

(٣) سنة ٧١٢٠ محسوبة من تقويم تاريخ العالم وبدء الخليقة منذ آدم ويوافق عام ٥٠٨ ق.م

(٤) هذه المخطوطات هى :

(١) سيناء عربى ٣٣١ ورق ٢٠٨ ورقة ١٢٢٧ م .

(٢) سيناء عربى ٣٣٢ جلد ٣٩٣ رقا القرن العاشر .

(٣) سيناء عربى ٣٣٨ ورق ١٦٢ ورقة القرن الثالث عشر .

(٤) سيناء عربى ٣٤٤ ورق ٢١٧ ورقة القرن الثالث عشر .

هذا بالاضافة الى مخطوطنا سيناء عربى ٣٤٣ .

*C.f.* Clark, *Cheklist*, p.34.

صورة للمؤلف وصورة السلم – ولعدم توفر أية دراسة نقدية لنص الكتاب حتى الآن ، سواء فى لغته الأصلية وهى اليونانية أو فى أحدى اللغات التى ترجم اليها وهى السريانية واللاتينية والأرمنية والروسية والاسبانية والإنجليزية إلى جانب العربية ، فمن العسير فى الوقت الحاضر تقدير الجهد الذى قام به الكاهن السورى ثابت الحموى والذى عبر عنه بكلمة «نجز» ، فهل أراد أن يقول انه قام بكل ما يتطلبه المخطوط من ترجمة ونسخ وتصوير وتجليد ؟ أم قام بدور الناسخ والمصور دون غيرهما أم بأحدهما فقط ؟ على أنه من المفيد أن نذكر أن أقدم المخطوطات التى وصلت الينا لكتاب سلم الفضائل جاء بالترجمة السريانية ويرجع إلى عام ٨١٧ ميلادية (١) – وكذلك وصل الينا مخطوط بالأصل اليونانى ويرجع إلى القرن العاشر (٢) بينما يرجع أقدم المخطوطات العربية للكتاب نفسه إلى نفس القرن العاشر الميلادى (٣) وكلا المخطوطين من مقتنيات مكتبة دير سيناء .

المؤلف :

يعرف المؤلف باسم يوحنا وشهرته « صاحب السلم » وهى مترجمة عن اليونانيـــة حيث يرد اسمه *Ἰωάννης ὁ τῆς κλίμακος* وكذلك يطلق عليه من باب الإختصار يوحنا السلمى أو الدرجى وأيضاً الصاعد (٤) وكلها معـــان يتضمنها لقبـــه اليـــونانى *κλιμακός* ومعلوماتنا عنه طفيفة جداً وهناك شك حتى فى تاريخـــه إذ أن مصدرنا الوحيد فى التعرف على تاريخ حياة هذا الراهب هو دانيال الطورى ، نسبه

---

(١) British Museum, (add. Ms. 14593) ويحمل تاريخ ٨١٧ ويحتوى على مجرد زخارف أنظر :

W. Stassoff, *L'ornement Slave et Oriental*, St. Petersburg, 1887, Pl. CXXVIII, nos I—2

(٢) Sinai Gr.417 ويحتوى على رسومات السلم أنظر فيما بعد .

(٣) سيناء عربى – ٣٣٢ يحتوى على ٣٩٣ ورق ويحتوى على مجرد زخارف ( لم ينشر )

(٤) عربه كذلك د. لويس عوض أنظر أهرام الجمعة ٣ مارس ١٩٦٧ ويوجد بها دموع

إلى دير طور سيناء ، ويبدو أنه كان ملازماً ومعاصراً للمؤلف ، ومنه تعلم أن يوحنا صاحب السلم دخل فى سلك الرهبنة وهو فى السادسة عشرة من عمره وعاش منفرداً ومتوحداً بدير سيناء مدى أربعين عاماً وقع عليه الاختيار بعدها ليصبح رئيساً للدير . وقد تولى هذا المنصب لفترة قصيرة إلى أن وافته المنية (١) — ويرجع المؤرخون أن هذه الفترة امتدت من سنة ٥٩٢ إلى سنة ٥٩٦ ميلادية (٢) .

وقد اتخذ المصور من هذه المعلومات عنواناً للوحته الأولى (شكل ١) حيث ورد فى أعلاها ( صورة أبينا القديس يوحنا كاتب سلم الفضائل رئيس جبل الله سيناء المقدس ) وهى تمثل أحد رجال الدين فى مقتبل العمر ذى لحية سوداء مدببة — يرتدى قفطاناً أزرق اللون ويتمنطق بحزام أحمر وقد اسدل على كتفيه عباءة خضراء وعلى رأسه عمامة يتدلى منها شال بنفسجى اللون ومن فوقها هالة القديسين — هذا ويجلس يوحنا على أريكة أمام مكتب صغير كمن يكتب فى كتاب مستخدماً ريشة ومحبرة موضوعة إلى جانب الكتاب - ورغم بساطة خطوط الوجه والملامح فقد بدا مستغرقاً فى تفكير عميق ، وهو أمر تعبر عنه أيضاً حركة أنامل يده اليسرى فقد رفعها أمامه كمن يتأمل فيها .

ولا شك أن هذه الصورة منقولة عن أصل تقليدى لصورة يوحنا الدرجى كانت ، على ما يظن ، قد انتشرت ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى وهى تمثل المؤلف عاكفاً على الكتابة — ومن أجمل أمثلة هذه الصور التقليدية تلك التى وصلتنا فى مخطوط مكتبة الفاتيكان الذى يرجع(٣) إلى

---

(١) وردت هذه الاشارة كمقدمة فى كل النسخ التى وصلت لينا .

(٢) V. Beneshevish, "Sur la date de la mosaique de la Transfigur - ation au Mont Sinai" *Byzantium*, *I*, 1924, pp. 145ff

ولاحتمال تواريخ أخرى لاحقة لهذا التاريخ أنظر

F. Nau, " Note sur la date de la mort de S. Jean Climaque", *Byzantintsche Zeitscharift*, XI, 1902, pp. 35—37

(٣) Vatican. Gr. 394.

هذا العصر حيث نرى يوحنا جالساً ، متجها إلى اليمين ياسطاً على ركبته ورقة يوشك أن يكتب عليها .

وقد أدخل فناننا السورى تعديلات ، ليست جوهرية تماماً ، على هذه الصورة التقليدية وهدفه من وراء ذلك ، على ما يبدو ، هو تعريبها ، إذا جاز لى أن استخدم هذا التعبير فهو يجعل يوحنا يتجه إلى ناحية اليسار حتى تتمشى الصورة مع طريقة الكتابة العربية من اليمين إلى الشمال . كذلك نجده يتطور مع عصره ويضيف مكتبة صغيرة أمام الكاتب متغافلا بذلك عن حياة الزهد التى نعرف أن يوحنا قد عاشها - أضف إلى هذا إستخدام العمامة ذات الشال كغطاء للرأس متمشياً فى ذلك مع ما اعتاده رجال الدين الشرقيون .

على أن أهم تغيير طرأ على صورتنا من الناحية الأيقونجرافية هو بكل تأكيد إظهار شعر اللحية باللون الأسود مخالفاً بذلك الصورة التقليدية حيث مثلت باللون الأبيض إشارة إلى تقدم المؤلف فى السن .

رغم هذه الإختلافات التى ، كما ذكرت ، دعت اليها ضرورة تعريب الصورة ، فانه من المؤكد أن فناننا العربى ، مثله فى ذلك مثل الفنان اليونانى الذى صمم الصورة التقليدية ، قد استعان فى تصميم صورته ، بصور تقليدية للانجيليين الأربعة ، متى ومرقص ولوقا ويوحنا وهى بدورها ، كما تعلم منقولةعن صور وتماثيل مفكرى وفلاسفة العصر الهلينستى والعصر الرومانى (١)

ومن الجدير بالذكر أن مكتبة دير سيناء تحتفظ بصورة تقليدية أخرى ذات طابع مخالف لصورتنا - فقد رسم يوحنا ، فى المخطوط سيناء - يونانى ٤١٧ (شكل ٣) وهو من القرن العاشر ، فى صورة نصفية تتوسط ميدالية وتمثله هذه الصورة رجلا ملتحياً متقدماً فى السن ، رافعاً يديه أمامه كمن

(١) A.M. Friend, Jr. "The Portraits of the Evanglists in Greek and Latin Manuscripts". (Reprinted from *Art Studies*, part I, 1927, part II, 1929

يصلى وقد عرف بالقديس يوحنا ὁ ἅγιος ΙΩΝΝΗϹ . هذه الصورة لها مثيلات كثيرة فى المخطوطات المصورة التى أشهرها كتاب « المقارنات المقدسة Sacra Parallela لمؤلفه يوحنا الدمشقى وهو مخطوط من القرن التاسع الميلادى ومحفوظ فى باريس (١) الا أننا نلاحظ أن وضع اليدين ووجود الهالة المقدسة توحيان بأصل كان يمثل يوحنا واقفاً مستوحى هوالآخر من تماثيل وصور الخطباء اليونان والرومان (٢) .

أما الصورة الثانية فى مخطوطنا العربى فتمثل كما هو وارد فى أعلاها (شكل ٢) «صورة سلم الفضائل والرهبان الصاعدين على درجات ومقاتلة الشياطين لهم وهبوط المتوانين إلى الجحيم » .

لقد ورد فى مقدمة المخطوط نص للرسائل المتبادلة بين يوحنا رئيس دير رايثو ( Raithu ) وهو الأسم اليونانى لمدينة الطور ، وبين يوحنا (الدرجى) رئيس دير سيناء «على نمط» هكذا جاء فى النص «من الرؤية التى رآها يعقوب بينما كان يرعى غنمه وإذ بسلم يمتد من الأرض إلى السماء والملائكة نازلين وصاعدين عليه» (٣) ، مشتملا على تعليمات وارشادات روحية للرهبان ليصبحوا بفضلها مهيئين للصعود إلى السماء ..

ان فكرة الصعود إلى السماء عن طريق سلم ، ليست بجديدة . فالسلم كرمز دينى عقائدى كان له فى مصر أثر كبير ويظهر فى نصوص الأهرامات ويستمر (٤) حتى العصر القبطى (٥) — كذلك هناك اشارات

---

(١) Biblo. Nat., cod gr. 923

(٢) A.M/ Friend, *op.cit.*

(٣) مرجعها الى سفر التكوين ( ٢٨ : ١٠ وبعدها ) .

(٤) H.B. Blok, "Zur altagyptischen Vorstellung der Himmelsleiter, *Acta orientalia*, VI, T927—28, pp. 257 ff.

(٥) G. Michalides, "Echelle mystique chretienne dessine sur lin", *Bulletin de Societé d'archéologie Copte*, XI, 1945

جديدة عن سلم روحي في الأساطير الأغريقية (١) ومن ثم أصبح لفكرة السلم مغزى خاص في الكتابات المسيحية فيتكلم يوحنا ذهبي الفم عن سلم يصعد به الإنسان من الأرض إلى السماء ويستخدم ثيودوريت (Theodoret)(٢) نفس الخيال المجازي لوصف تقدم رهبان سوريا نحو الكمال (٣) . ثم يأتي بعد هذا يوحنا الدرجي ليعيش في سيناء ويصبح بذلك ، كما لو كان موسى قادراً على اعتلاء الجبل للحصول على تعليمات من الرب . ويؤكد هذا ماجاء على لسان دانيال في المقدمة وكذلك ما جاء على لسان يوحنا رئيس دير الطور بالإضافة إلى ما يذكره المؤلف عندما يتحدث عن «الألواح الروحية» التي يكتب عليها كتابه (٤) ، مستعيراً ، على ما يبدو ، ألواح القانون التي أعطيت لموسى النبي .

ولكن يوحنا الدرجي يجعل من هذه الصورة الخيالية المجازية ، تمرينات روحية لها تأثير نفساني واضح على سلوك الرهبان وسرعان ما أصبح كتابه هذا التأثير من أوسع الكتب الدينية انتشاراً بدلالة العدد الكبير من النسخ الخطية التي وصلت الينا .

تتضمن الرسالة التي كتبها يوحنا الدرجي ثلاثين مقالا بعدد درجات السلم الذي يصل بين الأرض والسماء ويفسر لنا المؤلف هذا العدد بأنه رمز لسني حياة السيد المسيح على الأرض قبل أن يبدأ رسالته ، وهذه السن ، في رأي المؤلف ، هي سن الكمال والرشد والرجولة الحقة — والفكرة وراء هذا أن الراهب إذا أمكنه مراعاة هذه التعاليم يمكنه الوصول إلى مستوى الكمال القدسي .

---

(١) A. B. Cook, *Zeus, A study in Ancient Religion*, Cambrige, 1914—40 II pp. 121—140.

(٢) Migne, P.G., LIX, Cols 454—455

(٣) Migne, P.G., LXXXII, Col. 1484 C.

(٤) Migne, P.G., LXXXVIII, Col. 650.

يتناول يوحنا الدرجي في المقالات الثلاث الأولى وصف الأسس التي تقوم عليها الحياة الدينية أولا هجر الحياة الدنيوية περι ἀποταγῆ βίου وتدور تعاليمها حول «الزهد ومباينة هذا العالم الغرار» وثانياً هجر القنية وزوال التألم لفقد الموجودات περι ἀπροσπαθείας أي عدم التأثر بالعواطف : وثالثاً الغربة والأحلام περι ξενιτείας ὑπνώσεων أي الرحيل عن عالم ـ ويحتوى الفصل من الرابع حتى الخامس والعشرين على مجادلات في الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الراهب وفي الرزائل التي يجب عليه أن يتجنبها ـ ففي ناحية الفضائل الطاعة περι ὑπακοῆς والتوبة περι μετανοίας والتواضع والوداعة περι ἀοργησίας, πραότητος وفي الناحيـــــة الأخرى الخداع والتكبر μνησικακίας καταλαλιάς والطمع περι χαστριμαργίας وحب الظهور περι φιλαρχωρίας وهكذا ـ ويتنـاول المؤلف في الفصل السادس والعشرين موضوع الفطنة περι διακρίσεως وهي كفضيلة لا غنى عنها للراهب في صراعه ضد الرذيلة ـ وتتناول المقالة السابعة والعشرون الوحدة والإنفراد περι ἡσυχίας وتأتي في قمة مراتب الرهبنة ولكن يجب الا يقدم على ممارستها الا من زاول الرهبنة الجماعية ـ يتبع هذا فصل حول الصلاة περι ἀπαθείας وآخر حول الأطمئنان περι προσευχῆς وأخيراً وبعد أن يتحقق للراهب نصيب حسن من كل تلك الفضائل ، مجنباً نفسه الشهوات والملذات الجسدية يمكنه أن يكرس نفسه للتأمل والتفكير حتى يصعد إلى قمة السلم وهي الدرجة الثلاثين حيث يعيش مندمجاً في الثلاثي الروحي أو كما يسميه المؤلف « الثالوث المكين للفضيلة» ويعني به الإيمان والرجاء والمحبة περι πίστεως, ἐλπίδος καὶ ἀγάπης .

يبدو لأول وهلة وكأن صورتنا (شكل ٢) خير تسجيل تصويري لكل ما جاء في المخطوط من نصوص وان دلت على شيء فعلى عمق تفهم فناننا العربي لكل ما ورد في الكتاب . فعلى قمة جبل سيناء يرتفع سلم مدرج ليصل إلى السماء حيث مثل يسوع المسيح $\overline{\text{IC}}\,\overline{\text{XC}}$ يميل من قوس السماء ليقبض بيده اليمنى على ساعد أول الرهبان الذين نجحوا في صعود الدرجات

الثلاثين للسلم – يتبع هذا الراهب عدد كبير من الرهبان فى محاولات مريرة لارتقاء السلم درجة بعد درجة إذ انتشرت الشياطين ، فى شكل حيوانات مجنحة تعلو رؤوسها الخنزيرية قرون وأقدامها على شكل أقدام الديكة ، يجذبون ضعيفى الصبر والإيمان إلى حيث يلقونهم فى فم حيوان على شكل التنين فاغرا فاه ليلتهم أحد الرهبان ممن نجح الشيطان فى اسقاطهم كل هذا فى حركة وحيوية ساعد على إخراجها تعدد الألوان الزاهية من ناحية وتباين حركات الشياطين من ناحية أخرى . وحبذا أن ندقق النظر فى صور الشياطين التى على يسار وعلى الينه كى ندرك مدى سعة خيال الفنان فى تجسيد واخراج فكرة القوة الشيطانية ، فمنهم من يهاجم من الخلف ، ومنهم من يستخدم خطافاً ، ومنهم من يجذب بأسنانه ، ومنهم من يستعين بكلتا يديه فى حمل أحد الخاسرين ، بينما يجذب الخاسر الآخر من يده وشعره ، وأخيراً هناك ذلك الشيطان الذى مثل وكأنه يساعد أحد الرهبان فى الصعود من درجة إلى التى تعلوها لا شك أنها تصوير لمكر الشيطان وخبثه .

وإلى يسار الصورة رسم الفنان مبنى على شكل كنيسة مشيراً بذلك إلى كنيسة التجلى بسيناء يخرج منها رئيس الدير يوحنا وعلى رأسه هالة القديسين تتبعه مجموعة من مساعديه الرهبان كأنهم فى طريقهم لمشاهدة تطبيق تعاليمه عملياً ، والمكان كما ذكرت من قبل ؛ هو سيناء حيث عاش الراهب فى ديرها ومما يؤكد هذه الحقيقة أن الفنان قام بتسجيل ثلاثة أماكن هى أهم المعالم فى سيناء . فعلى هضبة عالية ذات نتوءات جبلية يظهر ملاكان جاثيان أمام «جسد القديسة كاترينا» مشيراً بذلك إلى أعلى قمم جبل سيناء وهو المعروف بجبل كاترينا حيث عثر ، كما تروى أساطير القرن الحادى عشر الميلادى ، على عظام القديسة التى استشهدت فى الإسكندرية فى نهاية القرن الرابع الميلادى – وفى وسط الهضبة ظهرت شعلة من نار كتب عليها «صورة العليقة» مصوراً بذلك مكان العليقة المحترقة التى شاهدها النبى موسى ابان رحلة هروبه من أرض مصر على رأس بنى اسرائيل – هذه العليقة أصبحت فى العصر المسيحى رمزاً للعذراء مريم « التى حملت المسيح دون

أن يمس بكارتها بشر ، ولهذا سجل الفنان صورة للعذراء تحمل الطفل فى داخل النار المشتعلة — على أن أهم معالم سيناء هو بدون شك ، جبل موسى ، حيث تسلم النبى ألواح الوصايا من الله وقد قام الفنان بتسجيل هذا الجبل فرسم رجلا بملابس الرعاة ، تغطى رأسه قلنسوة مخروطية ، جاثياً على ركبتيه ورافعاً رأسه إلى أعلى وكتب فوقه «النبى موسى» .

بعد هذا التحليل للصورة يبدو واضحاً أنه رغم احتوائها على صورة السلم فهى تحتوى على عناصر لا يمكن تفسيرها بمجرد الرجوع إلى النص أو حتى إلى رؤية يوحنا — فالتنين مثلا ، يمثل الجحيم والرهبان المتخاذلين يهوون فيه — وحيث أنه لم يرد فى النص أى وصف ولو ضمنى لهذا العقاب فنحن نرى أن الصورة قد بعدت بهذا عن مجرد التوضيح التصويرى للنص إلى صورة تعليمية ذات مغزى أوسع ، فهى توحى بأن السلم رمز ليس للتقدم الروحى فحسب ولكن للحياة الدينية بأكملها ، والوقوع من فوقه معناه الهلاك — ولا شك أن الفضل فى تحويل الصورة لتتضمن هذا المعنى الشامل يرجع إلى الفنان الذى قام بتصويرها مستوحياً فكرته من مصدر آخر يتحدث عن اليوم الآخر والجحيم ، خاصة وأن صورة المسيح على رأس السلم لا بد قد أوحت اليه كذلك بفكرة اليوم الآخر وهو ما عبر عنه برسم التنين — .

لكى نتبين مدى التطور الذى طرأ على صورة « سلم الفضائل » منذ اقتباس فكرتها عن النص الروحى إلى وقت ظهورها فى مخطوطتنا العربى أقصر بحثى هنا على المخطوطات اليونانية الموجودة بمكتبة دير سيناء (١).

---

١ — (١) سيناء — يونانى — ٤١٧ — من الرق — عدد الورقات ٢٥٤ — من القرن العاشر
(٢) سيناء — يونانى — ٤١٨ — من الرق — عدد الورقات ٣١٣ — من القرن الثانى عشر
(٣) سيناء — يونانى — ٤٢٣ — من الرق — عدد الورقات ٢٤٠ — من القرن ١١ — ١٢
(٤) سيناء — يونانى — ٤٢٧ — من الورق — عدد الورقات ٢٤٠ — من القرن ١٦ — ١٧

راجع Clark, Checklist, pp, 7,26, 27.

شکل (۱)

شکل (۲)

شکل (۳)

شکل (٤)

شکل (۵)

شکل (٦)

شکل (۷)

شکل (۸)